

# تماثيل ومرايا

محمد عبد العزيز ربيع

تحطيم المرايا كتاب فكري يقترب من التاريخ الشفوي، يقوم الدكتور عبد الحسين شعبان من خلاله باستعراض تجربته مع الحزب الشيوعي العراقي، وسرد حقائق ووقائع جديدة تقوم بتحطيم مرايا كثيرة كان الحزب يختفي خلفها ويحتمي بظلالها ويقوم بتمويه موافقه تبعا لانعكاساتها التي تخدم العين أحيانا، وتضلل عقل الناس أحيانا أخرى، وتزيف الوعي في كل الحالات والأحيان. وفي سياق نقد الفكر الشيوعي وتعرية مواقف قاداته ومدى جهل بعضهم، يقوم الدكتور شعبان بنقد الفكر العربي الذي سيطر على ساحة العمل السياسي والثقافي ردحا من الزمن، وساهم بوعي أحيانا ودون وعي أحيانا أخرى في كل ما أصاب الأمة العربية من إحباطات سياسية واقتصادية وثقافية على مدى نصف القرن الماضي.

إن أهم التحديات التي يواجهها إنسان في حياته، خاصة المفكر، هي التحدي مع الذات بهدف نقد فكر الذات المتأصل في الذهن، وإعادة النظر في المعتقدات الراسخة في الوجدان، ومساءلة العواطف التي تسرح وتمرح في أعماق القلب وتعبث به على هواها، وتحديد المواقف وتشكيل القناعات بناء على ذلك. إن عملية التحدي هذه تفرضها ظروف قاسية في العادة، مما يجعل المفكر يقف حائرا بين الاحتماء بما لديه من مخزون فكري وثقافي يكون الزمن والحدث قد تجاوزه، أو اتخاذ موقف نقدي يقوم من خلاله بإعادة النظر في مضمون ذلك المخزون وترميمه أو استبداله. وكما يعلم كل مهندس، تشمل عمليات الترميم الهدم والبناء في آن واحد، ولا تكتمل إلا بهدم القديم وتشبيد شيء جديد في مكانه، أي هدم المتقادم من الأفكار وتغيير المتأكل من المواقف، والتخلص من النظريات والافتراضات التي تجاوزها الزمن، وإعادة تشكيل الوعي في ضوء ما استجد من حقائق علمية وأفكار وفلسفات ونظريات جديدة.

إن مواجهة التحدي مع الذات عملية صعبة للغاية، ولا يستطيع أن يتحمل تكاليفها الباهظة سوى القلة قليلة من المفكرين الذين تجاوزت أحاسيسهم البعد الذاتي والوطني والقومي والديني إلى البعد الإنساني بكل ما يعنيه ذلك البعد من تعاطف مع الفقير والمظلوم والضعيف والبائس في كل أرجاء الدنيا، وحتى مع من مات منذ زمن دون أن يحصل على حقوقه. إن مواجهة التحدي مع الذات بأمانة وصراحة قد يؤدي، بل من شأنه أن يؤدي إلى تفكيك النظريات والفرضيات التي يركز عليها الفكر الإيديولوجي بغض النظر على طبيعته، والتشكيك في الموقف من الذات والغير والطبيعة والحياة.. من الماضي والحاضر والمستقبل على

السواء. إن من آفات الفكر الإيديولوجي ارتكازه على فرضيات ومسلمات كثيرة تشير إلى حتميات تاريخية لم تستطع أية إيديولوجية أن تصنعها. وكلما كثرت المسلمات وتعمقت في الوعي الحتميات كلما قلت الخيارات وأصبح الإنسان حبيس قوالب فكرية ونظريات هلامية ومواقف منحازة تصل أحيانا حد العنصرية، تحول دون قدرته على العيش بحرية والتعايش مع الزمن بسلام، وإقامة علاقة جدلية مع العصر الذي يعيش فيه تقوم على الأخذ والعطاء.

مواجهة التحدي مع الذات التي تنتهي بالانتصار تفرز إنسانا جديدا، أو بالأحرى مفكرا مبدعا ذا مواقف مبدئية إنسانية ثابتة، وقناعات مرنة قابلة للتطور والتحول تبعا لتغير معطيات الواقع وتطور المعارف والعلوم. قناعات تؤمن بحق كل إنسان في الحياة والحرية والكرامة وفرصة متكافئة مع الغير، ومواقف تسير على طريق التطور بعيدا عن الحتميات الإيديولوجية والتركات الحضارية والموروث الثقافي، وكل الشعارات الزائفة التي ترفعها التيارات اليمينية واليسارية على السواء. وهذا ما فعله الصديق العزيز عبد الحسين، إذ يستشف القارئ في كل صفحة من صفحات "تحطيم المرايا" إن الدكتور شعبان مفكر متميز، منفتح على كل التيارات الفكرية، الأممية والقومية والوطنية والدينية دون استثناء، لكنه يقف بعيدا كل البعد عن القوالب الإيديولوجية التي تكبل ولا تحرر، تُعاقب ولا تُسامح، تسجن كل حر ولا تحرر سجيناً واحداً.. أفكار ونظم وتعليمات وتقاليد تقفل العقل بالنسبة للبعض وتلغيه بالنسبة للبعض الآخر، وذلك خدمة لقادة مسكونين بحب السيطرة والتعالي واستصغار الآخر واحتقار إنسانيته.

وهنا أود أن أقتبس بعض ما جاء في كتاب الدكتور شعبان بخصوص المثقف، "فالمثقف لا بد له أن يتمسك بالحرية كقيمة عليا وشرط لا غنى عنه وخيار لا عودة فيه، وضرورة لأي عمل إبداعي أو اجتهاد فكري أو عمل حقوقي، وهذا هو الدرس الأول. أما الدرس الثاني، فهو لا بد من الانتماء إلى العقل الذي لا يمكن تعويضه بأي شيء آخر، وهو قبل كل إيديولوجية أو عقيدة أو قومية أو دين أو مذهب أو انتماء عشائري أو جهوي. أما الدرس الثالث، فهو الإيمان الكامل بأن الإنسان هو الأصل وهو مقياس كل شيء، وبالتالي لا يمكن لمثقف حقيقي أن يؤمن بالتمييز على أساس جنسي أو قومي أو دني أو اجتماعي أو لغوي أو لأي اعتبار آخر. وبهذا المعنى، إن المثقف الحقيقي هو الذي يسعى للتأخي بين البشر على أساس المشترك الإنساني، مع إيمانه بالتعددية والتنوع والتواصل بين الثقافات والحضارات، إضافة إلى حقوق المرأة والأقليات".

هذا تعريف جيد وجميل لصفات المثقف الحقيقي، لكن علينا أن نضيف أشياء أخرى، إذ لا بد وأن يكون لدى المثقف قدر كبير من المعارف العلمية والمعلومات العامة أولاً، وأن يكون ثانياً على درجة كبيرة

من الوعي بحال المجتمع والعالم وما يواجهه من مشاكل وأزمات وما تحتاجه عملية تجاوز تلك الأزمات وتحقيق التنمية والتحرر من إمكانيات وجهود، وأن يلتزم ثالثا بقضايا الدفاع عن الحريات العامة بما فيها حرية الرأي والفكر والعبادة، وقضايا العدالة الاجتماعية وحقوق المرأة والأقليات والفقراء والمستضعفين والمهمشين في الوطن وفي الخارج. إذ لا يكفي أن يؤمن المثقف بالتساوي والإخاء والتعاطف، بل عليه أن يأخذ مواقف تعكس ما يؤمن به عمليا من إخاء وتعاطف ووحدة مصير. إن المثقف ليس من ملك الكثير من المعلومات والمهارات اللغوية والخطابية وانتمى لإيديولوجية، بل من يملك الجرأة على اتخاذ المواقف الإنسانية الشجاعة من منطلق الوعي السليم بحقائق الواقع، واستحقاقات العصر ومتطلبات التغيير.

## المثقفون العرب

إن اختلاط الجهل بالعلم والخرافة بالحقيقة والكلمة بالمحتوى جعلني أقوم بتصنيف "المثقفين" العرب إلى صنفين رئيسيين: مثقفون تقليديون ومثقفون غير تقليديين. المثقفون التقليديون هم أشخاص حصلوا على قدر جيد من العلم والمعرفة، غالبا نتيجة للدراسة الجامعية والعيش في بلاد عربية أو إسلامية سنوات، والقراءة في كتب تراثية وتاريخية غنية بالخيال، ولكن ضعيفة الصلة بالحاضر. كما أن من الممكن أن يكون هؤلاء قد درسوا في جامعات غربية، ولكن دون التعرض لتجارب حياتية حقيقية في الدول التي درسوا فيها وعاشوا في ربوعها، ودون أن ينهلوا بوعي من نتاج شعوبها الفلسفي ويتعرفوا عن قرب على ثقافتها ونماذج حياتها اليومية. فهناك مئات آلاف من الطلبة العرب الذين درسوا في أمريكا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا وحصلوا على شهادات عليا من جامعاتها، أحيانا بتفوق، ولكن دون أن يعرفوا ما يكفي عن طريقة حياة المجتمع الذي عاشوا فيه ودون أن يستفيدوا من تجربته في التفكير والتخطيط والإدارة. ويعود السبب في ذلك إلى تركيز الثقافة العربية التي نشئوا في ظلها على الشهادة الجامعية، وليس على المعرفة العلمية والتجربة الحياتية والعملية. وهذا يجعل تجربة هؤلاء مع العلم كتجربة بطارية مع الكهرباء، تم في الغرب شحنها لتصبح قابلة للاستعمال مؤقتا، وجرى بعد العودة إلى الوطن تفريغها بسبب الإهمال وعدم الاستخدام وإعادة الشحن، مما جعلها تفقد صلاحيتها بعد فترة قصيرة. رغم ذلك، تتميز غالبية المثقفين التقليديين بقدرة كبيرة على فهم ما تعانيه الجماهير العربية من مشاكل يومية وما تتمسك به من عادات وتقاليد وقيم، وذلك بسبب خلفياتهم الثقافية ومعارفهم اللغوية. ولذا يستحوذ المثقفون التقليديون عامة على مهارات التواصل مع الجماهير العربية ومخاطبتها بلغة تفهمها مستخدمين مقولات تراثية وشعارات رنانة تدغدغ الأحاسيس وتستثير الخيال، ولكن دون معرفة متطلبات تحقيق التقدم المنشود، وكيفيه التعايش مع العصر والتجاوب مع استحقاقاته.

أما المثقفون غير التقليديين فهم جماعة من المتعلمين الذين درسوا غالبا في الغرب واطلعوا على تجربته الحياتية وإنجازاته الحضارية وتعلموا الكثير منها وعادوا لأوطانهم وفي نيتهم استخدام علومهم ومعارفهم وخبراتهم للإسهام في تقدم بلادهم وتطوير مجتمعاتهم. إلا أن تواجد هؤلاء في الغرب لسنوات يضعف عادة ملكاتهم اللغوية وقدراتهم على فهم مشاكل الجماهير العربية وتطلعاتها، ويفقدون لغة التواصل معها. وهذا يضعف قدرات المثقفين غير التقليديين عامة على قيادة الجماهير وإقناعها بالقبول بالتحويلات الثقافية والاجتماعية المطلوبة لتحقيق التقدم بأشكاله المختلفة ونواحيه المتعددة. ومما يعمل على حرمان هؤلاء من فرص القيادة، قيام أنظمة الحكم العربية باضطهاد البعض، وعزل البعض الآخر، وشراء ولاء وضمان الكثيرين، مما جعل بعضهم يلعب دورا سلبيا في عملية التنمية والتحرر في بلادهم. وبسبب خيبة أمل غالبية المثقفين غير التقليديين في التغيير، وفي ضوء سيطرة المثقفين التقليديين على زمام القيادة ووسائل الإعلام الجماهيرية مستخدمين لغة التراث والغوغائية، فإن الكثير منهم وجدوا أنفسهم مضطرين إلى العودة إلى البلاد التي درسوا فيها، بينما اتجه البعض الآخر إلى الانخراط في صفوف النخبة الحاكمة كمثقفي سلطة ومال، والمشاركة في عملية استغلال الجماهير واحتقارها وتكريس تخلفها.

ومما يستوجب التنويه به هنا أن ترجمة كلمة intellectual إلى اللغة العربية جاءت غير موفقة، إذ أدت إلى استخدام كلمة مثقف بالعربية لتعني intellectual دون أن يحيط المترجم العربي على ما يبدو بالأبعاد المجتمعية لتلك الكلمة الإنجليزية-الفرنسية الأصل. وهذا جعل "المثقف" العربي يحتل مكانة مرموقة في المجتمع دون أن يتحمل المسؤولية الأخلاقية التي يتحملها المثقف الأوروبي. ولذا كان لا بد من استخدام كلمة جديدة يكون في مقدورها وصف المثقف العربي التقليدي وتحديد دوره المجتمعي دون الاعتداء على المثقف العربي غير التقليدي ودون إهمال دوره المجتمعي الملتمزم. وبناء على هذا الوعي بالفرق بين المثقف الواعي الملتمزم والمثقف غير الملتمزم وغير الواعي غالبا جاء اقتراحي بتسمية الأول "مثقف" وتسمية الثاني "مثقف".

بناء على ما تقدم، يمكن القول أن تعبير "المثقفين" المتداول في البلاد العربية يقوم على التضييق غير الواعي، ويؤدي إلى الإساءة للمثقفين الحقيقيين من العرب وغير العرب. وبسبب التساهل في إطلاق لقب "مثقف" على كل من يحمل شهادة جامعية، وعلى كل من يعمل في مجال الإعلام والصحافة والنشر والخطابة، فإن "المثقفين" فقدوا الكثير من احترام الناس لهم، مما جعل أعدادا متزايدة من السياسيين والعقائديين وحتى العامة من الناس تقول إن المثقفين العرب أصبحوا جزءا من المشكلة التي تواجهها الأمة العربية، وليسوا جزءا من الحل. ولذا أصبح من الواجب إيضاح الفرق بين "المثقف" وغيره من دعاة

الثقافة والفكر في البلاد العربية، وذلك كي يأخذ كل ذي حق حقه ويصبح بالإمكان التعرف على المثقفين وفرز دعاة الثقافة. إنني أعتقد أن هناك ملايين "المثقفين" العرب، ولكن ليس هناك سوى مئات المثقفين العرب، وأن عدد المفكرين من بين أولئك المثقفين لا يزيد عن العشرات، وليس الآلاف كما توهي لنا مؤسسات الإعلام العربية.

لذلك لا يجوز وصف كل من يحمل شهادة جامعية أو يعمل في مجال الثقافة أو التدريس أو النشر أو الإعلام أو الوعظ والخطابة، أو من يحمل سيجارة وكتابا بأنه مثقف. فهناك ملايين الأطباء والمهندسين والمحامين وأساتذة المدارس وحتى الجامعات الذين ينتمون لفئة الأميين الثقافيين بامتياز، وذلك لأنهم لا يقرؤون كتابا واحدا في السنة، ولا يشتررون كتابا في حياتهم خارج مواضيع تخصصاتهم، مما يجعل من الخطأ تسميتهم مثقفين أو حتى مثقفين. كما أن من الخطأ والظلم أيضا اعتبار كل من كتب كتابا في التاريخ أو السياسة أو حتى في الفلسفة، أو أفتوى في قضية ذات علاقة بإيديولوجية دينية أو ماركسية أو قومية أو رأسمالية مفكرا. إن المفكر هو شخص يختلف عن هؤلاء جميعا، إنه من يعلو في فكره ومواقفه وتخيالاته فوق كل الأفكار الإيديولوجية ويتجاوزها من خلال وضعها جميعا في مستوى أخلاقي واحد وفي نفس المكانة الأدبية، وهي مكانة تسلبها المناعة ضد عمليات التحليل والتمحيص، وتُخضعها لعملية نقد من منظور علمي إنساني عقلاني يضع كل فكرة في إطارها التاريخي والمجتمعي السليم، ويقوم بالمقارنة بينها على أساس من منطق العقل وحقائق العلم.

إن ما يعاني منه المثقفون العرب من تهيمش وكتب في البلاد العربية يعاني منه أيضا مثقفو العالم الثالث غير التقليديين عامة، ولهذا فشلت غالبية دول العالم الثالث، بما فيها الدول العربية في تحقيق التقدم واللاحق بالعصر، مما جعل تبعيتها للغرب تتعمق. إن مجتمعا لا ينتج مثقفين ومفكرين أحرارا لا يمكن له أن يتحرر أو يتقدم، وكل مجتمع غير حر هو مجتمع عاقر لا ينتج فكرا ولا يربي قائدا حقيقيا يتصف بالوعي والالتزام والأمانة. إن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التي دفعت أفضل العقول العربية للهجرة بعيدا عن الوطن كانت مسئولة أيضا عن إجبار القلة من المثقفين الذين استمروا في العيش في الوطن ورفضوا الالتحاق بركب المال والسلطة إلى العيش في حالة اغتراب وعزلة داخل أوطانهم. وهذا دفع أولئك المثقفين، دون دراية، إلى تطوير تجارب حياتية وثقافية وفكرية ولغة تواصل خاصة بهم، بعيدة عن ثقافات وتجارب ولغة الجماهير المحيطة بهم وغير معبرة عن أوضاعهم الحياتية وتطلعاتهم المستقبلية. وفي ضوء تلك التطورات ضعفت قدرة الثقافات الوطنية على التطور بالاعتماد على الذات، حيث أصبحت عرضة للتأثر بالأفكار التراثية والخرافات والنظريات التأميرية والتشوهات

المستوردة من الخارج والنزعة الاستهلاكية، وضحية من ضحايا قيادات تقليدية همها الأول والأخير الحفاظ على مواقعها الاجتماعية وامتيازاتها المجتمعية. إذ ليس بالإمكان حدوث نهضة مجتمعية في أي مجتمع يقوم بعزل ما لديه من مفكرين ومثقفين أو أجبارهم على عزل أنفسهم ونفي فكرهم داخل الذات، بينما يستولي على زمام قيادته مجموعات غوغائية تجتر التراث ولا تملك من العلم أو الأخلاق إلا قليلا، وتستخدم ما تملك من فطنة وفهولة وعلاقات تقليدية ولغة شعبية لتكريس نفوذها وتعزيز مواقعها وتأمين مصالحها وتكديس الثروات لديها، وذلك على حساب الفقراء والضعفاء والجهلة من أبناء شعبها.

يطلعنا الدكتور شعبان من خلال نقد فكر وممارسات قادة الحزب الشيوعي على أشياء غريبة كنت شخصيا أجهلها مثل قيام بعض الأعضاء القياديين، بناء على أوامر رؤسائهم المقيمين في دول بعيدة، بالاعتراف بذنوب فاحشة، والقبول بالمذلة وعقاب أنفسهم وإهانتها. أما الذنوب والأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها أولئك القادة واستحقوا العقاب والقبول بالمهانة بسببها، فهي محاولة التفكير خارج أطر الإيديولوجية الماركسية. وهذا يجعلني أتساءل عما إذا كان في مقدور مثل هؤلاء "القادة" قيادة شعب، وهل بإمكانهم تحرير إنسان أو وطن، وهل لديهم القدرة على استيعاب مفهوم الحرية والعدالة والمساواة، والسماح لحرية الفكر؟

وفي الواقع، لا يمكن لأي شخص واعى يفكر بحرية ويكتب بأمانة وصراحة إلا أن يعترف بأن كل الإيديولوجيات فشلت فشلا ذريعا في تحقيق الحرية والتقدم بشقيه المادي والثقافي والاعتراف بحقوق الإنسان واحترام كرامته وإنسانيته. أما الإيديولوجيات المعنية، فتنقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسية: إيديولوجية اجتماعية ثقافية أي دينية، إيديولوجية اجتماعية سياسية أي قومية، وإيديولوجية اجتماعية اقتصادية أي ماركسية. وكما نلاحظ اليوم، حين نجح الحزب الجمهوري في أمريكا في تحويل الفكرة الرأسمالية والديمقراطية إلى إيديولوجية بدأت أمريكا تتراجع في كافة المجالات، فيما عدا مجال الجشع المادي والفساد السياسي والإنحطاط الإعلامي والتفرقة ضد الغير.

يقول الدكتور شعبان إن الحزب الشيوعي العربي فشل أن يكون حزبا شيوعيا وعروبيا في آن واحد، حزبا يتبنى الفكر الاشتراكي ويوظفه لتحرير الأرض العربية والإنسان العربي. وحين فشل قادة الحزب في نقد الفكرة الماركسية، فشلوا أيضا في تطويرها لتتلائم مع الواقع العربي، وسمحوا لأنفسهم أن يكونوا أداة من أدوات الحرب الباردة التي دارت رحاها بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وكلفت شعوب العالم الثالث، ومن بينها الشعوب العربية، عشرات الملايين من الضحايا، وما لا يعد ولا يحصى من الفرص لتحرير بلادهم من التبعية وتحقيق التقدم. وبسبب انقسام العرب إلى "حلفاء" للغرب و"حلفاء"

للشرق، فإن بلادهم أصبحت ساحات قتال مُستباحة لكل الأعداء.. حروب خاضها العرب دون أن يكون لهم فيها ناقة أو جمل أو حتى فأر، سوى حية تلدغهم كلما أحست بالدفء وتقضي على أحلامهم الواحد تلو الآخر. إنني أضع كلمة حلفاء بين قوسين لأن الدول العظمى لا تتعامل مع الغير من الدول والقادة كحلفاء، بل كعملاء، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة من الاحترام حسب الأهمية والخدمات المطلوبة.

حين كتب ماركس وحلل ونظر كان في الواقع يحلل بناء على واقع عاشه قبل أكثر من 150 سنة في دول أوروبية تعيش فترة الثورة الصناعية، بعيدا كل البعد عن العالم الآخر الذي كان يعيش في عصور الزراعة والقبلية في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية. وحيث أن العالم تغير ولا يزال يتغير ولن يتوقف عن التغير، فإن حقائق الأمس قد لا تصلح حتى كمؤشرات لما هو قادم ولما يجب أن يكون في المستقبل. كل نظرية أو إيديولوجية تتوقف عن نقد ذاتها وتطوير ما لديها من أدوات عمل يتجاوزها الزمن وتصيح بسرعة جزءا من تراث فكري لا يمت لواقع الحياة بصلة تذكر. إن الحقيقة الوحيدة غير القابلة للتغير في هذا الزمن وكل زمن هي التغير نفسه، وفيما عدا ذلك، كل شيء يتغير ويتبدل ويتحول بسرعة أو ببطء، لكن دون توقف، يلقي نظرة إلى الخلف بين الحين والآخر، لكنه يتطلع دوما إلى المستقبل.

كل نظرية فلسفية أو اقتصادية أو سياسية تشتمل على آلية خاصة لتفسيرها ونقدها ومحاولة اقناع الغير بحيثياتها. وحين يأخذ إنسان أو حزب بنظرية ويتوقف عند ذلك الحد، ولا يجرؤ على نقدها فإنه يتحول بسرعة إلى إنسان أو حزب يعيش خارج التاريخ، ويحكم بذلك على النظرية التي يؤمن بها بالتكلس والجمود والموت بهدوء. يقول الدكتور شعبان في نقده لمواقف مثل تلك القادة أنهم "لا يريدون أن يصدقوا أن الماركسية بحاجة إلى فهم ذاتي، كما هي صالحة للقراءة الموضوعية، وذلك لأسباب تتعلق بعدم قدرتهم على تقديم مثل هذه القراءة، إما لعجز فكري أو عدم تأهيل أو افتقاد إلى الجرأة أو سعي لإخفاء العيوب والمثالب أو رغبة في تمجيد الذات أو تكون قد أخذتهم العزة بالإثم".

كما أن شعبان لا يتوقف عند هذا الحد بل يتجاوزه لنقد الفكر الغربي الذي يطلق عليه اسم "الإيديولوجية البرجوازية" التي "تقدم مفاهيم للنهايات من أجل ديمومتها، فنهاية الفلسفة ونهاية الإيديولوجيا ونهاية التاريخ ونهاية الإنسان، ونهاية الكون، لكنها لا تتحدث عن نهاية الرأسمالية أو نهاية المجتمع الطبقي أو نهاية الأزمات الإنسانية، وهذه هي صورة الوعي الزائف في العالم المعاصر" .. نعم، مما لا شك فيه أن مفهومي الرأسمالية والديمقراطية أصبحا اليوم بمثابة إيديولوجية في أمريكا بالذات، لكن في الواقع، لم تعد هناك رأسمالية منذ منتصف الثمانينات، إذ تم اختطافها من قبل "نظام السوق الحر"، ولم تعد هناك ديمقراطية، إذ تم اختطافها من قبل المال، وهذا جعل الحزبين الديمقراطي والجمهوري يتمركزين في مواقع

متناقضة بناء على مصالح ذاتية وليس بناء على مصالح عامة، مما جعل نجاح العملية الديمقراطية يُقاس اليوم بمدى قدرتها على تجنب الوقوع في أخطاء تكون نتيجتها حدوث كوارث عامة مثل الأزمات الاقتصادية والمالية والحروب المكلفة، ولا يقاس بمدى ما تحقّقه تلك العملية من إنجازات علمية أو مصالح وطنية.

وقف ذلك الشاب الأنيق على شاطئ البحيرة، يتأمل مياهها الصافية وهدوئها اللامتناهي.. ويحلم بفتاة كاملة الأوصاف تلف ذراعها حول خاصرته وتسحره بجمالها وكمالها وعذوبتها. كانت عيناه مسلطة على مياه البحيرة البلورية، تحاول أن ترسم على وجهها صورة تلك الفتاة الساحرة.. ولذلك ترك خياله يتسلق أجنحة الخيال حرا ويغوص في أعماق البحيرة ويستوحي من سجلات التاريخ صورة مثالية يحتضنها في عينيه، ويضمها إلى صدره، ويعيش معها حلم حياته. وهناك على مقربة منه جلس فتى شقي اسمه عبد الحسين شعبان، يلعب في الطمي الذي حملته مياه النهر إلى البحيرة في أوائل الربيع ويصنع منه تماثيل لشخصيات أحبها وشخصيات لم يحبها وشخصيات يتخيلها كي يعيش معها قصة حب لا تنتهي.. كان الفتى يصنع تماثلا كل بضعة أيام ويلقي به في مياه البحيرة عليها تغدو متحفا لأعماله الفنية وخياله الواسع. وبعد أن أكمل عمله في ذلك اليوم الربيعي الجميل، رمى التمثال في مياه البحيرة، تحركت المياه.. تكسرت الصورة الجميلة التي كان يصنعها الشاب على وجهها وتكسرت صورته معها، ولم يعد بإمكانه إعادة تشكيلها. بكى الشاب حين رأى الحلم يموت قبل أن يولد.. ابتسم الطفل الشقي حين رأى مياه البحيرة تحتضن تمثاله بحنان وتضمه إلى قلبها.. ترك المكان وسار في طريقه سعيدا يتخيل شخصيات جديدة أخرى، ويبحث عن بحيرة أخرى يصنع من طينها تماثيل أخرى لتكتب قصصا أخرى.

محمد عبد العزيز ربيع

[professorrabie@yahoo.com](mailto:professorrabie@yahoo.com)

[www.yazour.com](http://www.yazour.com)